المدخل

إلى دراسة علم الكلام

الدكتور حسن محمود الشافعي

وكيل كلية دار العلوم جامعة القاهرة

الناشر

مكتبة وهبة

١٤ شارع الجمهورية - عابدين

القاهرة - ت - ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الثانية
١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

جميع الحقوق محفوظة

طبع بالمطبعة الفنية ت ٣٩١١٨٦٢

الإهـــداء

أهدي هذا الكتاب إلى أستاذي
فضيلة الشيخ الدكتور علي
عبد المنعم عبد الحميد ، الذي
كان لتوجيهه و إرشاده الفضل
الأول في اشتغالي بعلم الكلام .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ، و العاقبة للمتقين ، و لا عدوان إلا على الظالمين . و بعد :

فقد يكون من المناسب أن نقدم بين يدي هذا الكتاب كلمات قليلة عن مهمته ، و محتواه ، وظروف إصداره ، و إن كان الكتاب كله مقدمة بين يدي علم الكلام ، وقديما ميَّز أسلافنا بين مقدمة العلم أو مبادئه ، و مقدمة الكتاب أوخطبته .

ومهمة الكتاب ، كما يدل عليها عنوانه منذ البداية ، هي أن يمهد الطريق للراغبين في دراسة هذا العلم الذي عنى به علماؤنا و مفكرونا الأوائل ، واعتبروه هو " الفقه الأكبر " ، و علم " الأصول " التي يقوم عليها الدين الإسلامي بأحكامه العملية ، و آدابه الخلقية ، و نظمه التطبيقية ، بل بثقافته وحضارته جميعا . وهو يحاول أن يكون دليلا لهؤلاء الدارسين في توجههم شطر هذا العلم ، يشد على أيديهم ، ويكفكف من توجسهم و ترددهم ، و يبث الأمل و الطمأنينة في صدورهم ، و يرتاد لهم الطريق منبها على معالمه البارزة ، و مراحله الأساسية ،

مذكرا إياهم بالأدوات و الاستعدادات اللازمة لسلوك هذا الطريق على نحو يؤذن ببلوغ الهدف و تحقيق الغاية ، دون نزوع إلى الإفراط أو التفريط الذي جنى على بعض سالكيه من قبل .

و في الكتاب نبرة ولاء لهذا العلم ، و ثقة في مستقبله ، و إيمان بمهمته المتجددة في كل العصور ، و خاصة في عصرنا هذا ، عصر الصراع " الإيديولوجي " ، و الحوار العقائدي ، و الصحوة الدينية التي تكاد تنتظم العالم بأسره ... وللمسلمين منها ـ بحمد الله ـ نصيب وافر ، غير أن الوعي العقائدي المنشود الذي يبعث جوهر العقيدة و هو التوحيد ، و يضع الأساس الفكري لنهضة حضارية أصيلة في كافة مجالات الحياة ، و يبشر بإنسان جديد ، و يعيد زمام القيادة إلى يد الأمة المسلمة ـ لن يتحقق إلا بالعلم والعمل ، والعودة الجادة إلى منبع الثقافة الإسلامية وهو الكتاب والسنة ، في ضوء تراث الأئمة الذي ينتظم مجالات العقيدة و العمل جميعا ، و على أيدي علماء ربانيين يرشدون هذه الصحوة ، و يحْدونها إلى غاياتها النبيلة بإذن الله .

و لعل هذا الولاء الذي يعترف به كاتب هذه السطور لم يحل دون الموضوعية و الإنصاف ، في محاولة تفهم الأفكار و المواقف ، وتقويمها والحكم عليها حيثٍ لم يقنع الكاتب بمجرد التسجيل و الوصف ، بل تجاوز أحيانا إلى النقد و التقويم ، و الحكم و الموازنة ، و الله يقول الحق و هو يهدي السبيل .

و الكتاب مكون من خمسة أبواب تتضافر و تتعاون على تحقيق الغاية السالفة . فالباب الأول يهدف إلى التعريف بعلم الكلام و بيان مشروعية البحث فيه ، من خلال ثلاثة فصول أولها عن تعريف العلم ، وثانيها عن الأسماء التي عرف بها ، و الأخير عن مشروعية الاشتغال به .

أما الباب الثاني فيعرض للمرحلة التاريخية الطويلة التي قطعها هذا العلم و يعرض معالمها الرئيسية في إيجاز و اختصار بعنوان " نبذة عن تاريخ العلم " ، و يتعرض الفصل الأول منه لفترة النشأة خلال القرن

الهجري الأول . و يليه الثاني مختصا بعهد التدوين و ظهور الفرق ، و فيه محاولة لتوزيع هذه الفرَق في منظومة منطقية معينة ، بناء على مواقفها الأساسية . ثم يأتي الثالث فيتناول المراحل التاريخية التالية منذ القرن السادس تقريبا حتى الوقت الحاضر .

و في الباب الثالث محاولة لتعرف "مناهج البحث في علم الكلام" وهي ناحية بالغة الأهمية في دراسة أي علم ، و تعرف طبيعته وخصائصه، و يختص الفصل الأول منه ببيان موقف المتكلمين من "الدليل العقلي" . و الثاني يدرس موقفهم من "الدليل النقلي" . و الثالث يتعرض لدراسة صيغ الاستدلال و صوره في علم الكلام .

و يعمد الباب الرابع ـ و عنوانه " فصول تكميلية " ـ إلى محاولة إكمال هذا التعريف المبدئي بعلم الكلام عن طريق بيان علاقاته بالعلوم المختلفة شرعية و غيرها مع التطلع إلى إمكاناته المستقبلية ، و ذلك في الفصل الأول من هذا الباب . و في الثاني تعريف موجز بالمصطلح الكلامي الذي هو أداة رئيسية للبحث و الدراسة ، كما هو الحال في كل علم . و في الفصل الثالث محاولة للتعريف بما يقابل علم الكلام في الأديان الكتابية وهي الثيولوجيا اليهودية و المسيحية مع الإلمام أحيانا بمدى إفادتهم من علم الكلام ، و ذلك بحث مهم في ذاته ، و خاصة لمن لم تتيسر لهم أية دراسة لأنظمة عقدية خارج البيئة الإسلامية .

أما الباب الخامس فقد قدمنا فيه نصوصا مختارة تمثل طائفة من أهم الآراء العقائدية التي اعتنقتها الفرق الكلامية العشر التي تعرضنا لها في الباب الثاني ، أملا في أن يتذوق القارئ أسلوب المتكلمين في عرض أفكارهم ، ويتمرس إلى حد ما بهذا الأسلوب قبل الدخول في دراسة جادة لمحتويات هذا العلم و مسائله . و بالله التوفيق .

و بعد .. فإن الدراسات الكلامية قد ازدهرت وآتت بعض ثمارها في النصف الأخير من القرن الرابع عشر ، ولعل مرد ذلك إلى النهضة التي انتظمت مؤسسات التعليم الديني في فترة مقاومة الاحتلال و الخلاص

منه ، و إلى مشاركة أقسام الدراسات العقلية في الجامعات المدنية في اكتشاف الحلقات المفقودة و الآثار المجهولة لتاريخنا الفكري ، و إلى الحركة الناشطة في مجال إحياء التراث و نشره ، و إلى التحدي الفكري الذي مثلته الثقافة الغربية و الكشوف العلمية و المذاهب الفكرية الجديدة للعقلية المعاصرة ... إلى غير ذلك من العوامل التي تقتضي منا سعيا حثيثا إلى ربط شبيبتنا الناشئة بتراثهم الغني الزاخر ، و دينهم القائم على الحق و الإنصاف ، المطابق للفطرة و الموافق للعقل الصحيح ، دون انغلاق أو جمود ، بل في سماحة و تفتح ، وقدرة على الموازنة و الحكم .. تجعل كل ما يصلنا من أفكار عونا لنا لا علينا ، و جزءاً أصيلا من نسيج فكرنا ، دون إحساس بالنقص و الدونية ، ما دمنا نرجع في ذلك إلى قاعدة فكرية ثابتة ، و عقيدة حنيفية راسخة .

و قد سبقت هذا العمل المتواضع أعمال كثيرة تتجه إلى الهدف نفسه الذي يرمى إليه ، و منها كتاب التوحيد للشيخ حسين والي ، و علم التوحيد لشيخنا علي حسَب الله ، و مقدمة كتاب مناهج الأدلة ، لأستاذنا الدكتور محمود قاسم ، و علم الكلام و بعض مشكلاته لأستاذنا الدكتور أبي الوفا التفتازاني ، و عوامل وأهداف نشأة علم الكلام لصديقنا الدكتور يحيى فرغل ، و غيرها كثير و الحمد لله و ندعو الله - تعالى - أن يكون هذا الكتاب عونا لمبتدئ أو هداية لحائر أو تشجيعا لراغب ؛ فهو - سبحانه - ولي كل خير و مصدر كل نعمة ، و بنعمته تتم الصالحات ، و هو حسبنا و نعم الوكيل .

المؤلف

الباب الأول

علـم الـكلام
و مشروعية البـحث فيـه

الباب الأول

علم الكلام و مشروعية البحث فيه

تمهيـد :

في مفتتح هذا المدخل سنقدم في إطار " الباب الأول " فصولا ثلاثة . يحاول أولها تقديم تعريف مبدئي بعلم الكلام و طبيعة مباحثه ، و مكانته بين العلوم الإسلامية ، و وظيفته التي ينهض بها . و ذلك من خلال نظرات مختلفة إلى هذا العلم ، من داخله ومن خارجه ، في عصور مختلفة ، بحيث تتضح صورته و أبعاده و أطواره المختلفة ، و لو على نحو إجمالي ، بدلا من التركيز على تعريف واحد و تحليله لفظيا و فنيا ، على طريقة الحواشي التقليدية ؛ مما قد يسطح المسألةَ ، و يحد من حركة العقل في تناولها من زوايا متعددة و مشارب مختلفة . و هي في النهاية محاولة لتعريف مبدئي ؛ إذ الكتاب كله بأبوابه جميعا يطمح إلى تقديم هذا التعريف المنشود ، الذي لا يغني بدوره عن الدراسة الجادة لقضايا العلم ومباحثه ، و إنما قصاراه أن يحرك شهية الدارسين إلى الشروع المتبصر الواعي في هذه الدراسة إن شاء الله .

و لتحقيق هذا الغرض ـ بطريقة أخرى ـ يأتي الفصل الثاني مستعرضا الأسماء التي أطلقها المتكلمون على هذا اللون من البحث في أصول الدين الاعتقادية ، و هذه التسميات و إن لم تعكس حقيقة المسمى دائما ، فهي ـ على كل حال ـ تعكس نظرة معينة إلى طبيعته و محتواه ، و هو ما نحسب أنه يتضافـر مع مضمـون الفصـل الأول في التعـريف بالعلم ، على نحو قد يسمح بالشروع فيه عن بينة ، و المضي في دراسته على بصيرة .

أما الفصل الثالث و الأخير فهو لا يجري فقط علي سنة مرعية لدى أسلافنا في بيان حكم الاشتغال ـ قبل الشروع ـ بأية دراسة علمية ، بل يهدف إلى أن يزيل ما عسّاه قد تخلف تاريخيا من عقبات في طريق هذا العلم أو نشأ حديثا من شكوك حول وظيفته و منهجه و مدى الحاجة إليه ، أملا في أن يمضي الدارسون لهذا العلم في ما قصدوا إليه من بحث ونهضوا به من دراسة ، مطمئنين إلى مشروعية هذا البحث و جدوى تلك الدراسة .

الفصل الأول

تعريف علم الكلام

عرف البحث في الأحكام الاعتقادية من الشريعة الإسلامية أو الأصول الدينية الكلية للإسلام باسم "علم الكلام" ، أو "أصول الدين" ، أو "الفقه الأكبر" ، أو"علم التوحيد" ، أو "علم العقائد الإسلامية" . و غرضنا في هذا الفصل هو التعريف بالعلم المقصود بهذه التسميات المختلفة ، و ذلك عن طريق استعراض عدد من "التعريفات" التي قدمها بعض العلماء ـ من متكلمين و غيرهم ـ لهذا العلم .. محاولين التعرف على طبيعته وخصائصه من خلال فهمها وتدبرها ، و مستعينين على ذلك بالإشارة السريعة إلى موضوعه و غايته و أهم مباحثه ، مع إشارة سريعة أيضا إلى علاقته بالعلوم الدينية الأخرى .

و لا يغيب عن خاطرنا في الوقت نفسه أن تلك محاولة تمهيدية لتحقيق هذا الغرض و أن ما نقدمه ليس تعريفا بحقيقة العلم على طريقة «الحد الحقيقي » لدى المناطقة ، و إنما هو « تعريف بالرسم » فقط ؛ إذ « التعريف الحقيقي » أو معرفة جوهر هذا العلم أو - أي علم آخر - إنما يتحقق بعد المعرفة التامة بمسائله و أبحاثه جميعا .

١ ـ من أقدم التعاريف التي وصلتنا عن علم الكلام تلك التي تنسب إلى أحد الأئمة المجتهدين في القرن الثاني الهجري ؛ و هو الإمام أبو حنيفة (. ١٥) مؤسس المذهب الفقهي المعروف و الذي يحتل بين علماء

أهل السنة مكانة مرموقة في تأسيس «علم الكلام » أيضا ، أو كما أسماه هو ـ رحمه الله ـ علم « الفقه الأكبر » . فينقل عنه أحد أتباعه المتأخرين قوله في بعض رسائله ، ما خلاصته :

(اعلم أن الفقه في أصول الدين أفضل من الفقه في فروع الأحكام .. ، و الفقه هو معرفة النفس ما يجوز لها من الاعتقاديات و العمليات ، وما يجب عليها منهما .. و ما يتعلق منها بالاعتقاديات هو الفقه الأكبر ، و ما يتعلق بالعمليات فهو الفقه » (١) .

و يلفت النظرَ في هذا التعريف أمورٌ :

أ ـ أنه يرفع مكانة هذا العلم الباحث في الأحكام الشرعية الاعتقادية ، الذي أسماه " الفقه الأكبر " ـ و هي تسمية لها فضلها و ميزاتها ـ فوق "علم الفقه " أو العلم الباحث في الأحكام العملية الفرعية ؛ من حيث إن هذه الأخيرة تنبني على صحة الاعتقاد بأصول الدين ، من معرفة بالشارع سبحانه و بصحة ورود الشريعة و وجوب التزام المكلف بها ، و من ثم كانت هذه أصولا ، و الأولى فروعا .

ب ـ و أنه يميز بين العلمين المذكورين بناء على اختلاف طبيعة الأحكام الشرعية التي هي مجال البحث في كل منهما ، فما يتعلق بالنوع الأول من الأحكام هو الفقه الأكبر أو الكلام و ما يتعلق بالنوع الثاني هو الفقه .

ج ـ و أن العلم بهذين النوعين من الأحكام ؛ الأصول الاعتقادية و الفروع العملية ، ينبغي أن يقوم على الحجة الواضحة و الدليل الصحيح؛ سواء كان مصدر هذا الدليل شرعيا أوعقليا مستنبطا من الشرع أومتفقا معه، ليكون جديرا بما اعتبره هذا الإمام "فقه النفس" بما يصح لها وما يجب عليها.

---

(١) هو البياضي في كتابه "إشارات المرام .." ص ٢٨ ـ ٢٩ .

و لذا فقد استخلص هذا الحنفي المتأخر من مجموع أقوال إمامه التعريف التالي : "الفقه الأكبر : هو معرفة النفس ـ عن الأدلة ـ ما يصح لها و ما يجب عليها من العقائد الدينية "(١) .

د ـ و نختم تعليقنا على هذا التعريف المبكر لعلم الكلام ، الذي يستمد مقياس التمييز له من طبيعة الأحكام الشرعية أو المسائل المبحوث عنها في هذا العلم بالإشارة إلى أنه قد أثر في طائفة من علماء الكلام اللاحقين ممن لهم صلة بتراث هذا الإمام الجليل ؛ كالنسفي الماتريدي (٥٢.) الذي يقرر في العقائد النسفية هو وشارحه التفتازاني ما خلاصته : "إن الأحكام الشرعية منها ما يتعلق بكيفية العمل وتسمى فرعية وعملية ، و منها ما يتعلق بالاعتقاد و تسمي أصلية و اعتقادية . و قد سموا ما يفيد معرفة الأحكام العملية عن أدلتها التفصيلية بالفقه ، ومعرفة العقائد عن أدلتها بالكلام" (٢) . و هذه الروح الحنفية نلمَسها أيضا لدى الكمال بن الهمام في كتابه "المسايرة" إذ يقول : و الكلام هو معرفة النفس ما عليها من العقائد المنسوبة إلى دين الإسلام عن الأدلة" ، و لذا يصرح صاحب "المسامرة" شرح المسايرة بأن هذا التعريف مأخوذ من قول أبي حنيفة رضي الله عنه (٣) .

٢ ـ فإذا انتقلنا إلى القرن الرابع الهجري وجدنا الفيلسوف المعروف "أبا نصر الفارابي" (ت٣٣٩هـ) يعرف "علم الكلام" في محاولته تصنيف المعارف المعاصرة له في كتابه "إحصاء العلوم"؛ فيميز بينه و بين الفقه أيضا ، و لكن على أساس آخر قائلا : "صناعة الكلام يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء و الأفعال المحدودة التي صرح بها واضع الملة و تزييف كل ما خالفها ، و هذا ينقسم إلى جزئين أيضا : جزء في الآراء و جزء في

(١) السابق ، ص ٣٠ .
(٢) انظر التفتازاني شرح العقائد النسفية ، ص ٤ و ما بعدها .
(٣) المسامرة شرح المسايرة لكمال الدين بن أبي شريف ص ١٠ ، مطبعة السعادة ، القاهرة .

الأفعال . و هي غير الفقه لأن الفقه يأخذ الآراء و الأفعال التي صرح بها واضع الملة مسلمة و يجعلها أصولا فيستنبط منها الأشياء اللازمة عنها . والمتكلم ينصر الأشياء التي يستعملها الفقيه أصولا ، من غير أن يستنبط منها أشياء أخر" (١) .

و يتميز هذا التعريف ـ الذي يكاد ينفرد به الفارابي ـ بما يلي :

أ ـ أنه كما يلاحظ فضيلة المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق : "لم يقصد إلى بيان الكلام الإسلامي و الفرق بينه و بين الفقه على مصطلح أهل الإسلام ، بل قصد الكلام في العلوم الدينية جملة فجعلها طائفتين : طائفة تبحث فيما يقتدر به الإنسان على الاستنباط من نصوص الدين المأخوذة تسليما ، و طائفة تبحث فيما يقتدر به الإنسان على نصرة ما جاء به الدين من العقائد و الأحكام و تزييف كل ما خالفه بالبراهين العقلية" (٢) ؛ فالفارابي إذن يعرف بالبحوث اللاهوتية أو "الثيولوجيا" أو النظر الديني الذي ينشأ عادة في ظل أي دين أو نظام عقائدي ، و هو ما يقصده هنا بلفظ "الملة" (٣) ، بغرض إثبات صحة قضاياه ، و أحكامه و الدفاع عنها بالبراهين العقلية و النقلية .

ب ـ و أن هذا التعريف ، و إن أشبه سابقه في تقسيم البحوث المتعلقة بالنصوص و الأوضاع الدينية ـ إذا غضضنا الطرف عن العلوم المتعلقة بمجرد رواية هذه النصوص ونقلها ـ إلى قسمين : الفقه و الكلام ، فهو يميز بينهما لا على أساس كون الحكم المبحوث عنه في كل منهما نظريا أو عمليا ، و لكن حسب الهدف من البحوث فإن كان هو استنباط أحكام جديدة من الأحكام الأصلية كان " فقها " ، و إن كان الهدف هو دعم الأحكام الأصلية ببراهين جديدة أو دفع شبهات الخصوم عنها كان "كلاما" ، و كل من الفقه و الكلام ـ في نظر الفارابي ـ يحتوي أحكاما

---

(١) الفارابي : إحصاء العلوم ٦٩ ـ ٧٠ .

(٢) عبد الرازق : تمهيد ٢٥٩

(٣) انظر الفارابي : كتاب الملة ـ المقدمة .

نظرية و أحكاما عملية (الآراء و الأفعال المحدودة)، و كلاهما ينطلق من النصوص الأصلية و يستخدم العقل إما في الاستنباط و إما في الدفاع . وإن كان كلام الفارابي يشعر بأن دورالعقل في الكلام أظهر منه في الفقه .

ج - و أن الفارابي يميز في علم الكلام نفسه بين جانبين : الأول إيجابي يهدف إلى إثبات العقائد و الأحكام التي تحتويها الملة بالبراهين المختلفة ، و الآخر سلبي يقصد إلى تزييف كل ما يخالفها أو يناقضها . و هذا التمييز يجد أثره فيما بعد لدى كل من الغزالي و ابن خلدون ، و إن كان الغزالي يركز على الوظيفة السلبية لعلم الكلام و يجمع ابن خلدون بينهما على سواء .

د - و أثر هذا التعريف الفلسفي للكلام يمكن أن يلتمس - على كل حال - ممزوجا بروح اعتزالية لدى أديب وثيق الصلة بكل من الفلسفة و الكلام ، هو "أبوحيان التوحيدي" (ت ..٤هـ) الذي يقول : " أما الفقه فإنه دائر بين الحلال و الحرام و بين اعتبار العلل في القضايا والأحكام . و أما علم الكلام فإنه باب من الاعتبار في أصول الدين يدور النظر فيه على محض العقل في التحسين و التقبيح و الإحالة و التصحيح .. و بابه مجاور لباب الفقه ، و الكلام فيهما مشترك و إن كان بينهما انفصال و تباين ..." (١) .

٣ - فإذا جئنا إلى بداية القرن السادس الهجري نجد "الغزالي" (٥.٥) المتكلم الأشعري ذا النزعة الصوفية يتحدث في كتابه "المنقذ من الضلال" عن علم الكلام فيقول " ... و إنما مطلوبه حفظ عقيدة أهل السنة و حراستها عن تشويش أهل البدعة .. نعم لما نشأت صنعة الكلام و كثر الخوض فيه .. تشوق المتكلمون إلى مجاوزة الذَبِّ عن السنة بالبحث عن حقائق الأمور و خاضوا في البحث عن الجواهر و الأعراض و أحكامها ،

---

(١) عبد الرزاق : تمهيد ، ص ٢٥٨ ، و انظر أيضا زكريا إبراهيم : فيلسوف الأدباء ، ص ٤٠ .

لكن لما لم يكن ذلك مقصودَ علمهم لم يبلغ كلامُهم فيه الغايةَ القصوى ، فلم يحصل منه ما يمحو بالكلية ظلمات الحيرة في اختلاف الخلق . ولا أُبعِدُ أن يكون حصل ذلك لغيري ، بل لست أشك في حصول ذلك لطائفة .. " (١) .

أ ـ وهذه الآفكار التي يؤكدها الغزالي في كتب أخرى (٢) هي أشبه بالنقد أو التحليل الموضوعي لعلم الكلام ، من حيث دواعي نشأته وتطوره من دفاع عن العقيدة يدفع الشبه المثارة حولها ، إلى بحث شامل في الوجود من أجل حراسة العقيدة و الذب عنها أيضا . و من حيث وظيفته التي هي حماية العقيدة لا إنشاؤها أو تقويتها. و من حيث منهجه العقلي المنطقي الذي لا يصلح لكل أصناف الخلق بل للبعض منهم فقط .

ب ـ غير أنه مما يلفت النظر أن الغزالي يتكلم عن الكلام كما لو كان ظاهرة سنية مع أن الكلام يضم مدارس و جهودا عدة ليس مقصودها بالضرورة "حفظ عقيدة أهل السنة و حراستها عن تشويش أهل البدعة" . و لعل الرجل كان يتكلم عن الكلام كما مارسه هو أو كان يقصد الرد على من يرى من أهل السنة أن الكلام لا داعي له مطلقا ، فبين دواعيه الواقعية ، و لعل هذا هو سرّ تأكيده للجانب السلبي من هذا العلم .

ج ـ هذا ، و ربما كان الغزالي أكثر تحديدا في تعريف علم الكلام مما سبق نقله ، و ذلك حيث يقول في أوائل كتابه " الإحياء " في الباب الثاني من "كتاب العلم" : « اختلف الناس في العلم الذي هو فرض على كل مسلم ... فقال المتكلمون : هو علم الكلام إذ به يدرك التوحيد و يعلم ذات الله ـ سبحانه ـ و صفاته .. » (٣) .

٤ ـ و في القرون التالية ـ من السابع إلى التاسع ـ نجد تعاريف

---

(١) الغزالي : المنقذ ، ص ١٣٢ ـ ١٣٧ .

(٢) انظر الغزالي : "الاقتصاد" ص ١٣ ، ١٩ و في "الإحياء" ، باب "قواعد العقائد" ٨٩/١ و ما بعدها .

(٣) الغزالي : الإحياء ١٤/١ـ ١٥ .

عديدة تؤكد على الجانبين معا : الجانب الإيجابي في علم الكلام الذي يقصد به إثبات العقائد الدينية و الجانب السلبي الذي يعمد إلى رد الشبه عنها ، كما تؤكد أيضا على شموله في الواقع لكافة المذاهب التي تنتسب إلى الإسلام ، أو تضيف من آرائها الخاصة إليه و لو خطأ ، و لا يقتصر على نصرة أقوال أهل السنة فحسب كما يقول الغزالي في النص السابق ذكره ، فمن ذلك :

أ - تعريف البيضاوي الأشعري : "علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية ، بإيراد الحجج عليها و دفع الشبه عنها " (١) . و بيّنٌ أن الغاية هي تكوين الملكة العلمية لدى دارسيه لإثبات العقائد التي جاء بها الوحي و الدفاع عنها في وقت معا .

ب - و يؤكد ذلك قول الإيجي بعده (٧٥٦) : "و الكلام علم يقتدر معه علي إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج و دفع الشبه ، و المراد بالعقائد ما يقصد فيه نفس الاعتقاد دون العمل ، و بالدينية المنسوبة إلى دين محمد عليه السلام ؛ فإن الخصم و إن خطّأناه لا نخرجه عن علماء الكلام ... " (٢) ، و هكذا يشمل البحث في علم الكلام مذاهب المبتدعة حتى لو كانت خاطئة عند التحقيق ، مادام القائل بها ينسبها إلى الدين الإسلامي لشبهة عرضت له .

ج - و يزيد الجرجاني (٨١٦ هـ) ذلك وضوحا ، مقارنا بين الفقه و الكلام من جانب و بين الكلام و الفلسفة من جانب آخر ؛ إذ يقول في "تعريفاته" : « الفقه .. هو العلم بالأحكام الشرعية العملية ، المكتسب من أدلتها التفصيلية . والكلام علم يبحث فيه عن ذات الله تعالى وصفاته و أحوال الممكنات من المبدأ و المعاد على قانون الإسلام ... و القيد الأخير لإخراج العلم الإلهي للفلاسفة » (٣) .

---

(١) البيضاوي : الطوالع مع شرح المرعشي ، ص ٤ .

(٢) الإيجي : المواقف بشرح الجرجاني ، ص ١٤ - ١٥ .

(٣) نقل عن الشيخ عبد الرزاق في التمهيد ص ٢٥٨ .

د ـ و نجد ابن خلدون (٨٠٧) ـ وهو فيلسوف اجتماعي و مؤرخ معاصر للجرجاني ـ يجمع بين هذه النظرة الشاملة لعلم الكلام و نظرة الغزالي ؛ إذ يعرّف علم الكلام بأنه : "علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المنحرفين في الاعتقادات "(١) . و قريب من ذلك نجده عند علماء القرون التالية كالتهانوي في "كشافه" (٢) و السنوسي في "مقدمته" (٣) و الباجوري في "رسالته" (٤) و الميهي في شرحه لمنظومته (٥) .

٥ ـ و في القرن الأخير " الرابع عشر الهجري" نجد الشيخ محمد عبده (ت١٣٢٣هـ/١٩٠٥م) يعرف هذا العلم في مفتتح رسالته المشهورة بأنه : " علم يبحث فيه عن وجود الله وما يجب أن يثبت له من صفات وما يجوز أن يوصف به وما يجب أن ينفي عنه ،و عن الرسل وما يجب أن يكونوا عليه و ما يجوز أن ينسب إليهم وما يمتنع أن يلحق بهم ...." (٦) .

و هو يعرف العلم بموضوعه أو بأبرز مباحثه و لكنه في الحق غير جامع لتلك المباحث فقد أهمل بعض مباحثه الأساسية كمبحث السمعيات ـ مثلا ـ من البعث و ما بعده ، كما أنه يعرض عن الإشارة إلى الجانب السلبي من مباحث الكلام .

و لمزيد البيان لطبيعة هذا العلم و وفاء بما سلفت الإشارة إليه في مفتتح هذا الفصل نضيف هنا ما يلي :

يمكن أن يقال في تعريف هذا العلم أيضا : « إنه العلم الذي يبحث فيه عن الأحكام الشرعية الاعتقادية التي تتعلق بالإلهيات أو النبوات أو

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٠٠ .
(٢) انظر الشيخ عبد الرزاق في التمهيد ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤ .
(٣) السنوسي : السنوسية بشرح البيجوري ص ١٢
(٤) انظر الشبراوي : القول المفيد شرح "رسالة التوحيد" للباجوري ، ص ١.
(٥) انظر الميهي في حاشيته على منظومة الجوهر الفريد في عقائد التوحيد ص ١)
(٦) محمد عبده : رساله التوحيد ، ص ٤ .